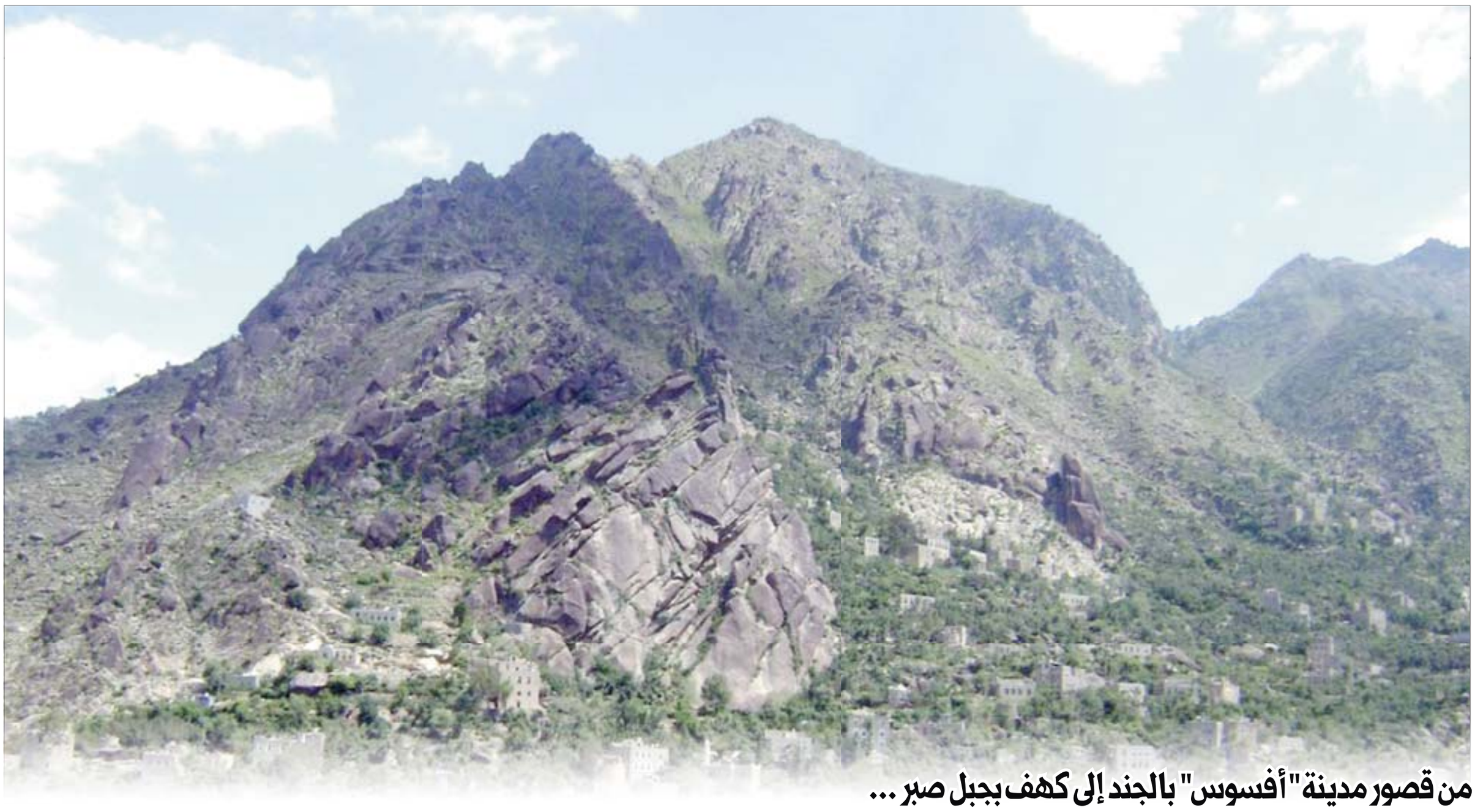

من قصور مدينة "أفسوس" بالجند إلى كهف بجبل صبر ...

أهـل الكـــهف ...الـرحـلـة الخـــالدة

رحلة ملؤها شوق وإثـارة كـان الهدف منها معرفة الموقع الجغرافي لأهل الكهف ابتداء من المدينة التي هربوا منها مرورا بالكهف وقصته العجيبة وانتهاء بالمسجد الواقع بين تلك القمم المطرزة كعقد اللؤلؤ في قمة جبل صبر بمحافظة تعز ، وعين الماء الموجودة بجواره ، أما الوجه الثاني من الرحلة فكان خصيصا لرصد نداءات استغاثة من قبل هذا الموقع الأثري بالذات (مسجد أهل الكهف)، نظرا للإهمال الذي يتعرض له من قبل الجهات الرسمية ، تفاصيل أكثر في سياق الاستطلاع التالي... نتابع.

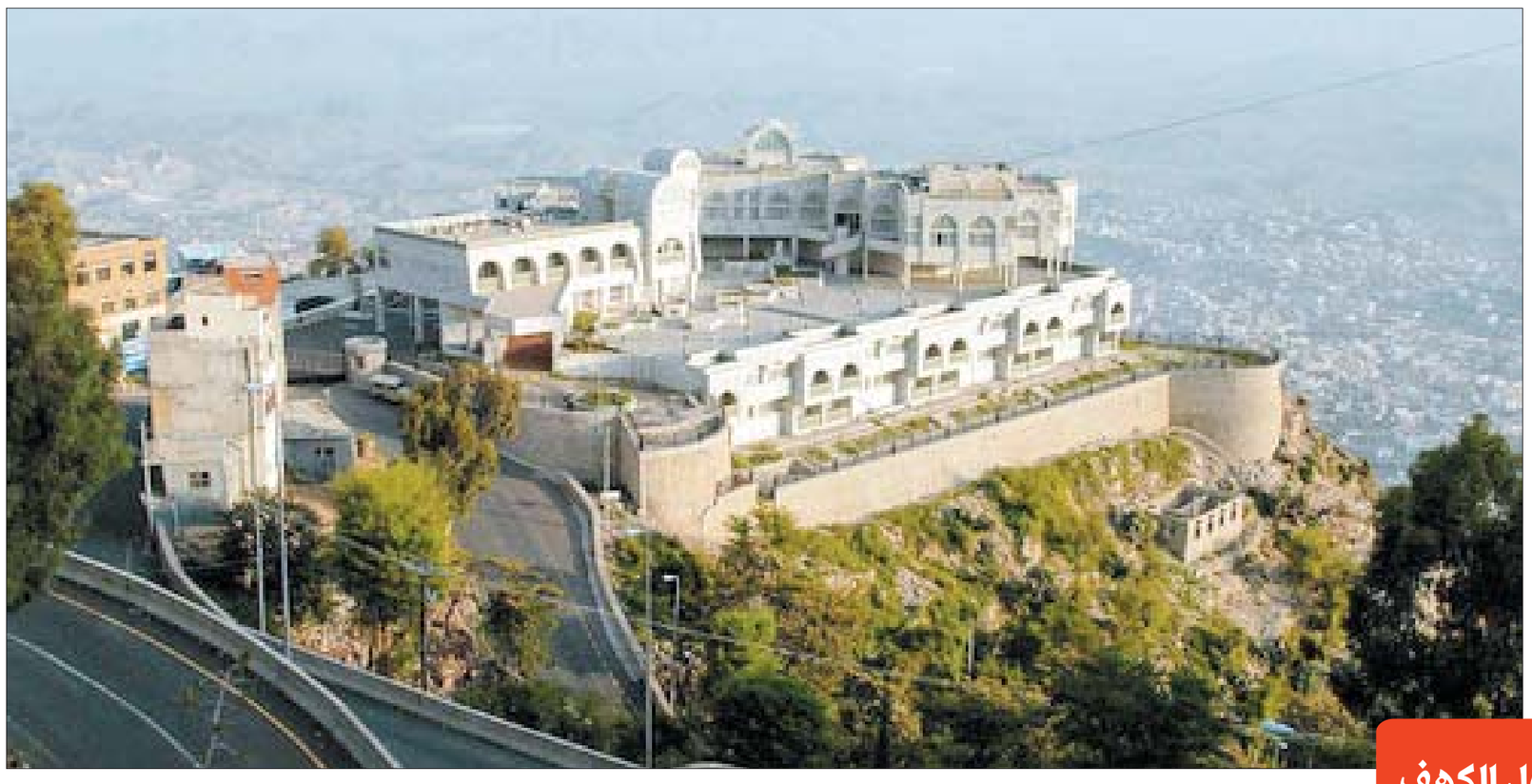

استطلاع / هشام المحيا

> قوم نصبوا الأصنام وعبدوها وجاءوا بالذبائح فنحروها وغنوا ورقصوا وسكروا بعد أن كفروا بالله وبدينه، من بين هؤلاء القوم كره بضعة نفر ــ من أبناء الملوك ــ هذه الطقوس الدينية وآمنوا بالله وقرروا بعدها الفرار من مدينتهم خوفا على دينهم، فشدوا الرحال برفقة كلبهم ..ــ وعين الله ترعاهم ــ بحثا عن مكان آمن لا يصل إليه الملك دقيانوس فيردهم عن دينهم ،فوجدوا كهفا بأسفل جبل فدخلوا فيه وناموا ثلاثة مائة سنة وتسع سنين، استيقضوا بعدها وأرسلوا أحدهم إلى المدينة بحثا عن طعام لهم ، ولكن تفاجأ من أرسلوه بالتغير الجذري الحاصل للمدينة ، حينها عرف الملك قصتهم وقابلهم في الكهف وبعد ذلك استأذنوه في العودة إلى مضاجعهم وهنا قبض الله أرواحهم ،وأصبحت هذه القصة متوارثة من جيل لآخر، أيضا جاء القرآن الكريم بها كعبرة للمعتبرين .

مدينة أهل الكهف

" أفسوس" ويقصد بها الأرض البيضاء وهو اسم المدينة التي قطنها قوم الملك "دقيانوس" بما في ذلك أصحاب الكهف ــ كما ورد عن العالم العربي ابن المجاور الدمشقي ــ الذي أنكر وجـود أهل الكهف في الشام وأكـد على وجودهم في اليمن، وتسمى هذه المدينة حاليا بـ"الجند" وهي ذات المدينة التي بنى فيها سيدنا معاذ بن جبل -رضي الله عنه- مسجده بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف تاريخ بناء المدينة لعدم وجود الدلائل العلمية لإثبات ذلك ،إلا أن أقرب الظن أنه يعود إلى الفترة التي تلت رسالة سيدنا عيسى عليه السلام وقد ذكر بعض المؤرخين القدامى كابن المجاور أن أهل الكهف كانوا على الديانة المسيحية آنذاك ، وتميزت هذه المدينة بأرضها الخضراء ومائها العذب الغزير ،إضافة إلى ذلك تميزت بالزراعة والصناعة والتجارة ، كل هذه العوامل أدت إلى ثراء وترف السكان ونكرانهم النعمة وبعدها كفروا بالله ، الأمر الذي قوبل بالرفض من أصحاب الكهف وهربوا من قومهم بحثا عن مكان آمن في ضواحي المدينة فلم يجدوا نظرا لتصميمها الحديث آنذاك والذي سيكشف مكانهم إن اختبأوا فيها ، بعدها خرجوا من المدينة من جهة الشرق باتجاه جبل صبر فوصلوا إلى منطقة تسمى "ثعبات"بأسفل الجبل.

ثعبات

"ثعبات" تعتبر هذه المنطقة مخضرمة جغرافيا فهي قريبة من مدينة تعز وقريبة ــ أيضا ــ من جبل صبر وكانت هذه المنطقة بمثابة "قص الشريط" لحكاية أسطورية ستبدأ عما قريب مع الضيوف الذين حلوا بأرضها هربا من الملك وعلى الرغم من قلة خيرها آنـذاك لأنها خالية من السكان إلا أنها استطاعت إيجاد مأوى للضيوف ، وكـان ذلك المأوى هو جل ما تملك ، إنه الكهف الذي يُنسب إليه قصة أصحاب الكهف ،هذه المنطقة تحولت فيما بعد ــ أثناء نوم أهل الكهف ــ إلى مدينة وكانت تسمى بمدينة الثعبان ــ وهي ذاتها التي خرج إليها أحد أهل الكهف بحثا عن طعام لأصحابه وكان ذلك بتاريخ 10 رجب كما ورد في كتاب تاريخ اليمن على مدى تسعة آلاف سنة وتحول اسم هذه المدينة فيما بعد من مدينة الثعبان إلى ثعبات .

الكهف

المتابع لقصة أهل الكهف ، يجد نفسه وكأنه أمام مسلسل درامي بديع ،كُتب فيه النجاح ــ المبالغ فيه ــ لبطله ، فالمتأمل للكهف يجد فيه من التصميم الهندسي ما لم يصل إلى مخيلة البشر ، فالكهف له بابان الأول في "ثعبات" والثاني في عزلة "المعقاب" التي تبعد حوالي 900 متر الأمر الذي جعل هذا مستثنى عن بقية الكهوف وذلك بميزة البابين عن قمة جبل صبر البالغ طوله 3200 متر ، وتقدر المسافة بين بابي الكهف بـنحو 2300 متر ،وذلك من خلال قياس المسافة بين البابين المتقابلين تقريبا رغم بعد المسافة بينهما .

دخـل أصحاب الكهف إلى كهفهم ــ بعد فرارهم بدينهم ــ من جهة ثعبات واستمروا في المشي داخل الكهف حتى وصلوا إلى الباب الآخر الموجود في عزلة المعقاب في جبل صبر وهناك حطوا رحالهم ونـامـوا في هـذا المكان ثلاثمائة وتسع سنوات ، والمعروف عند علماء الطب أن الأجسام في مثل هذه الأماكن تبلى بالذات إذا كانت المدة كبيرة كمدة نوم هؤلاء الرجال إلا أن الكهف بموقعه المميز حل هذه الإشكالية كما ذكرها المولى عز وجل في كتابه فقال "وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال" والمتأمل لباب الكهف يرى أن الآية وصفته بشكل دقيق حيث باب الكهف يسمح للشمس بالدخول إليه أثناء طلوعها وكذلك عند الغروب .

يبلغ طول الكهف حوالي 2300 متر ومسجده الأثري مهدد بالانهيار

ولكشف أسرار هذا الكهف قام العديد من الباحثين في مجال الآثار بمحاولات الدخول إليه فلم يستطيعوا، نظرا لوجود صخرة في كلا البابين ،وكان آخر الفرق البحثية الفرقة الأردنية التي جاءت قبل سنوات لعمل مقارنة بين موقع أهل الكهف في اليمن والموقع الآخر الذي يروى أنه في الأردن وحاولوا الدخول إلى الكهف فلم يستطيعوا للسبب ذاته ، وبعد إلقاء نظرة سطحية على المكان ككل أكدوا أن العلامات المذكورة في القرآن وكتب التاريخ تنطبق على هذا الموقع أكثر من الموقع الذي في الأردن .

المسجد

إلى تلكم الرحاب الطاهرة شددنا رحالنا ، إلى المسجد الذي يحتضن بروحانيته أهل الكهف ، وبينما نحن في تبة مرتفعة تطل على الوادي الذي يقع فيه المسجد شاهدت عيني منظرا أصاب جسمي ــ من فوره ــ بالقشعريرة ، إنه واد من أجمل الأودية التي تزدان ببساط أخضر أخَّاذ والمسجد فيه كالشامة في خد الحسناء ، اقتربنا شيئا فشيئا بخطوات متسارعة ناحية المسجد وكأن مأذنة المسجد تشدنا إليها لترينا ما يخفيه المسجد من آيات ما تزال شاهدة على وحدانيته جل وعلا ،وفي زحمة البيوت المجاورة للمسجد ظللنا طريقنا نظرا لعدم وجود طريق سالكة إلى باب المسجد ولغياب اللوحات الإعلانية للمسجد، وفجأة وجدنا أنفسنا عند باب المسجد الذي وجدنا مكتوبا عليه بخط قديم بقدم أهل الكهف تحتاج قراءته لعدسة مكبرة، دخلنا المسجد الجديد - كما يسمونه - رغم أني لا أرى فيه أي شيء جديد ،والذي بني على يد الشيخ أحمد بن علوان قبل 890 سنة بحسب الوثيقة التي وجدوها في وسط الحاجز الذي يفصل بين الجامع القديم والحديث عند هدمه بداعي التوسعة في عام 1990م والوثيقة عبارة عن لوح خشبي مكتوب عليه اسم من بنى المسجد وتاريخ البناء .

مايهمنا هنا هو حال المسجد الذي يعاني من مشاكل كثيرة ، فالأسمنت الذي في أرضية المصلى الخارجي قد انتهت صلاحيته وتحول إلى تراب يستقبل أعين وملابس الزوار الكرام ،أما المسجد من الداخل فحدث ولا حرج فالجدران عارية تماما من مادة "الجص" المخلوط بالتراب والتبن الذي يعد الطابع التراثي للمسجد وذلك لأن سقف المسجد يعاني من تشققات تسمح للماء بالنزول إلى داخل المسجد وبالتالي يعمل على تخريبه ، في هذا المسجد ترى فيه شواهد الإهمال الذي تمارسه كل من وزارتي الثقافة والسياحة وإدارة محافظة تعز ، فالمصيبة أن المسجد مهدد بالانهيار لعوامل عدة من اهمها غياب الصيانة ، أما المسجد القديم الملاصق للمسجد الجديد فيوجد فيه باب الكهف الذي بني لأجله المسجد ، وتحديدا في الناحية اليسرى منه من جهة القبلة ولا يتجاوز المسجد الأربعة الأمتار طولا والثلاثة عرضا ، أما باب الكهف فلا تتجاوز مساحته نصف متر مربع وذلك بعد أن تم إغلاق مساحة كبيرة منه بداعي الحفاظ عليه ووضع على هذا الباب شباك خشبية "قفص" .

ويذكر المؤرخون أن ضريح أهل الكهف بالقرب من هذا الباب لأنهم عندما دخلوا الكهف من باب "ثعبات" ظلوا يمشون داخل الكهف حتى وصلوا إلى الباب الذي بُني عليه المسجد وهنا استقروا.

وبجوار المسجد في غرفة مستقلة يوجد ضريح الشيخ عبدالقادر الجزائري من جمهورية الجزائر، ولهذا الرجل قصة عجيبة حكاها لنا خطيب المسجد الأستاذ عبدالله يقول "هذا الرجل جاء من الجزائر إلى هذا المكان قبل ثلاثمائة سنة بعد أن بحث عن أهل الكهف في كل الدول التي يقال أنهم فيها وعند وصوله إلى هذا المكان وجد فيه من الروحانية ما لم يجدها في غيره - كما قال آنذاك - فأوصى أهل المنطقة أن يدفنوه بالقرب من أهل الكهف .

يذكر أن تاريخ بناء المسجد غير معروف إلى اليوم نظرا لغياب عملية البحث من خلال علماء مختصين بعلم الآثار في البلد ومما زاد الطين بلة غياب اهتمام الدولة .

عين الماء

على بعد بضعة أمتار من باب الكهف تقع عين الماء التي جاءت بمجيء أهل الكهف إلى هذا المكان على أرجح الروايات التاريخية، وتتميز ماء هذه العين بدرجة عالية من العذوبة على خلاف بقية عيون مياه المنطقة، وتعتبر كالمدد لأهل المنطقة عند حـدوث جفاف في عيون المنطقة، ويأتي الناس للشرب من هذه العين من أماكن بعيدة كما يأتي إليها بعض السائحين من المنتمين لدين المسيح عليه السلام، لاعتقادهم أن أصحاب الكهف كانوا على دين المسيحية، الأمر الذي تؤيده بعض الروايات في التاريخ العربي .

استغاثة

منذ أن كان في ريعان شبابه إلى أن شاب رأسه وشاخ جسمه وهو يبحث عن مسئول في الدولة أو رجل خير يسخره الله لترميم المسجد الذي يعاني الاهمال ، عبدالله علي وهو المعني بالحديث السابق بدأ رحلة البحث عن ترميم للمسجد منذ مطلع التسعينيات فلم يجد، الأمر الذي استدعى توجيه نداءات استغاثة عاجلة إلى كل من وزارتي الثقافة والسياحة ومحافظ محافظة تعز شوقي هائل وأمينها العام محمد الحاج أن يعملوا كل ما بوسعهم للحفاظ على مسجد أهل الكهف كتاريخ وتراث ديني وإنساني وأخلاقي وثقافي للإنسان اليمني .

ختاما

رغم كل ذلك لاتزال مدينة الجند بمسجدها العريق وصبر بجبلها الشامخ معلمان يلونان تاريخ اليمن بمشاهد الإرث الحضاري الضارب في الجذور غير أن غياب اهتمام الدولة تماما بهذا التراث الديني الذي بتجدد الزمن ..يرسم علامات التعجب والاستهجان لدى كل الناس.